الفصل الثامن

أخطر المغامرات البحرية في التاريخ!

- تسعة أشهر في قبضة الجليد
- تحدي الجليد.. فحطم سفينته وابتلعها في جوفه!
- قوة الجليد تعادل ملايين الأطنان، ودويه يفوق مئات المدافع!
- اصنع خيراً وارمه في البحر.. فقد تحتاج إليه في يوم ما!
- قوارب النجاة.. حملوها بدلاً من أن تحملهم!!
- كان سبب شقائهم.. فهربوا منه ولكنهم افتقدوه كثيراً!
- عضهم الجوع.. فأتوا على كلابهم جميعاً!
- افتقدوا الماء.. فشربوا الدماء!!
- الجليد خطف السفينة بعد أن أغواها.. ثم عادت إليهم بعد تسعة أشهر.

شاكلتون وكوارث لا تنتهي

أما وإن الصراع المحموم بين المغامرين قد حُسم لصالح أمندسن، وهلاك سكوت وصحبه، فقد هدأت الأمور قليلاً، إذ لِمَ العجلة والقطب قد تم تحديده؟. ولكن الذي جُبل على حب المغامرة هل يهنأ له عيش ويطيب له رقاد، وهناك مساحات شاسعة من أرض القارة لاتزال مجهولة لم يكشف سترها المصون أحد؟.

كل الذي تم في تلك الأيام، هو الدوران حول القارة ومن ثم السباق نحو تحديد القطب أما عبور القارة نفسها وتحديد معالمها والتعرف على تضاريسها، فهذا ما راود المغامرين بعد عودة أمندسن إلى بلاده.

عالم الجغرافيا الطبيعية الألماني الدكتور "ويلهلم فلنشر" وضع خطة لإختراق القارة من بحر ويدل إلى بحر روس، ولكنه عندما وصل شاطئ بحر ويدل اكتشف إستحالة تنفيذ خطته كما وضعها، إلا أنه قام بدراسات قيمة حول الجروف الجليدية الممتدة من بحر ويدل حتى القارة والتي تتصل بطنف روني الجليدي "*Ronne Ice Shelf*" واكتشف أنها تشبه تماماً تلك الجروف في طنف روس الجليدي "*Ross Ice Shelf*". وبينما كان الدكتور فلنشر ورفاقه يقومون بدراساتهم وأبحاثهم عن الجليد سمعوا دوياً هائلاً "كأنما مئات من المدافع الثقيلة انطلقت مرة واحدة" حسب تعبير فلنشر، وكان سبب هذا الدوي الهائل هو انفصال كتل جليدية ضخمة من الطنف الجليدي، فهرعوا من فورهم إلى سفينتهم ألمانيا "دوتشلاند" ولكن الجليد العائم احتجزهم بسفينتهم لمدة تسعة أشهر كاملة. قبل أن يتخلصوا منه ويعودوا من حيث أتوا، ولكن رغم الإنجازات القليلة التي حققوها نسبة إلى من سبقهم، إلا أنهم تركوا خلفهم ذكرى لا زالت قائمة إلى اليوم. حيث سُمِّي الطنف

الجليدي الممتد من جزيرة بيركنير "*Berkner*" وبين أرض كوتس "*Coats Land*" باسم فلشنر على اسم قائد الحملة.

أرنست هنري شاكلتون، هو بعينه الأيرلندي الذي كاد أن يلقى حتفه في القارة والذي لقى من الأهوال فيها ما يشيب له الولدان وتضع كل ذات حمل حملها، هو نفسه الذي عاد إلى بلاده من الرحلة الأولى محمولاً على محفه، وهو الذي كاد أن يصل القطب في رحلة من أقسى الرحلات الإنسانية التي تم تدوينها.. لم يكتف بما لقي بل ما إن سمع عن عودة فلنشر هارباً مذعوراً مما رأى ومما لقي من حبس دام تسعة أشهر، حتى أعلن عن خطط لقيام بعثة تبدأ من بحر ويدل على المحيط الأطلسي شمال شرق خليج فاهسل، وتجتاز منطقة القطب الجنوبي مروراً بنهر بيرد مور الجليدي وتنتهي في ماك موردو وفي بحر روس على المحيط الهادي حيث تتخذ هناك قاعدة لها. تماماً كما كان البروفسور فلشنر يأمل قبل أن يقنع من القيمة بالإياب

استطاع شاكلتون إقناع الحكومة البريطانية بخطته تلك وحصل على سفينة نرويجية قوية وجديدة، وجهز بعثة مكونة من ستة رجال ومائة كلب.. نعم مائة كلب! فقد وعى شاكلتون الدرس جيداً وعرف يقيناً بأن هلاك سكوت كان بسبب اعتماده على الخيول بدل الكلاب، كما اصطحب شاكلتون معه عدد من الزلاجات منها اثنتان تعملان بواسطة المحركات وكانت تلك وسيلة جديدة لم تُستخدم من قبل .

غادر شاكلتون في شهر أغسطس سنة ١٩١٤م أي بعد بضعة أيام من الحرب العالمية الأولي، غلي متن سفينته الجديدة "أنديورانس"، حتى وصل علي بهد ٢٠٨ كم من خليج فاهسل، إلا أن الجليد أطبق علي السفينة في ١٩ يناير سنة ١٩١٥ م وأخذت تتقاذفها الرياح وهي في أسر الجليد، حتى تكونت حول السفينة كتلة من الجليد طولها ثلاثة أميال

وعرضها ميلان ونصف تقريباً تبحر بلا هدي تارة نحو الجنوب الغربي وتارة أخري نحو الشمال الغربي.

أدبر الصيف وأقبل الشتاء وما أدراك ما شتاء القطب الجنوبي، وما أن هل شهر يوليو، منتصف الشتاء وذروة سنامه، حتى تكالبت كتل الجليد من كل صوب علي السفينة وأخذت تضغط عليها من كل جانب، ورغم متانة السفينة، إلا أنها لم تستطع الصمود،وأخذ الماء يتسرب إليها من شقوق أحدثها ضغط الجليد، ورغم ذلك الموقف العصيب، إلا أن شاكلتون وجد وقتاً ليسجل في يومياته انطباعاته ومنها على سبيل المثال: "كنا كالمتطفلين الذين وجدوا أنفسهم فجأة وسط عالم غريب عنهم، وأصبحت حياتنا رهن قوى طبيعية غاضبة ونحن عاجزين حيالها وهي تسخر من محاولاتنا الضعيفة للنجاة".

وفي يوم ١٤ أكتوبر تعرضت السفينة إلى ضغط فجائي هائل سببته كتل جليدية ضخمة. وأعطى شاكلتون أوامره بالإستعداد لمغادرة السفينة وتم إنزال قوارب النجاة مساء يوم ٢٦ أكتوبر، كما تم إنزال المؤن والعتاد على سطح الجليد المطبق على السفينة وفي يوم ٢٧ أكتوبر ترك الطاقم السفينة وأعينهم تفيض من الدمع وهو أصعب موقف يواجهه بحار في حياته ولا يعرف الشوق إلا من كابده! وكتب شاكلتون يقول: "إنها من أصعب الأمور أن يرى المرء سفينته وهي تتكسر تحت أقدامه وعيدانها التي هي بمثابة أضلعها تتثنى وتتحطم محدثة دوياً كدوي المدافع لقد كانت كتل الجليد العائمة تندفع من الخلف بقوة ملايين الأطنان فتنسف السفينة نسفاً".

وأخذت السفينة "أنديورانس" تتحطم وتتهاوى رويداً حتى غاصت تحت الماء يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٥م. وكان أقرب مأوى للمغامرين الملتاعين يقع في جزيرة بوليت بالقرب من جزيرة جونفيل التي كنا فيها بالأمس، حيث يوجد الكوخ الذي بنته البعثة السويدية

برئاسة نوردنيسكولد سنة ١٩٠٢م وزودته بالطعام بعثة أرجنتينية بعد ذلك، ولكن ذلك الكوخ يقع على بعد حوالي ٣٤٦ ميلاً وأنىّ لزوارق النجاة أن تصل إلى ذلك المكان النائي وسط كتل الجليد الضخمة؟! ولعل المفارقة العجيبة هنا هي أن الطعام الموجود في ذلك الكوخ قد اشتراه شاكلتون نفسه لنجدة بعثة نورد نيسكولد عندما أصابها ما أصاب شاكلتون الآن من كارثة!! كان على شاكلتون ورفاقه، أن يصلوا إلى ذلك المستودع بقوارب النجاة!! وهو مطلب لو يعلمون جد عسير، إذ كان عليهم أن يحملوا قواربهم معهم لا أن تحملهم قواربهم! إذ كيف تبحر تلك القوارب فوق سطوح الجليد وهي التي هيئت لتبحر فوق صفحات الماء؟!

أعد شاكلتون الزحافات لكي يجرها الرجال والكلاب، وحملَّها بالطعام والخيام وقوارب النجاة أيضاً! حتى لم يعد هناك من مكان لشيء لا ضرورة قصوى له وضرب شاكلتون مثلاً بأن تخلى عن ساعته الذهبية وعلبة سجائره الذهبية وكل ما كان معه من جنيهات ذهبية وحذا حذوه رجاله. وانطلقوا يجرون زحافاتهم على كتل الجليد إلى مقصدهم وكانت رحلة من أقسى وأصعب الرحلات في تاريخ الإنسانية.

الشقاء على الجانب الآخر

مرت خمسة أشهر تقريباً وشاكلتون ورفاقه فوق الجليد الطافي أتوا على كل ما كان معهم من طعام، بل أنهم استعانوا بكلابهم، حتى أتوا على آخر كلب كان معهم يوم ٢إبريل سنة ١٩١٦م ثم استعانوا بعجول البحر والبطاريق. والخطر من أن يتشقق الجليد الذي يسيرون عليه يتهددهم في كل لحظة. وفي يوم ٩ إبريل بانت لهم جزيرتا كلارنس وأليفنت (العربة والفيل!)، ثم انشق الجليد تحت أقدامهم فأنزلوا قواربهم إلى الماء التي حملوها بكل ما كان لديهم من مؤن وعتاد، إلا أنهم نسوا شيئا في غاية الأهمية رغم أنهم كانوا يسيرون فوقه، نسوا أن يحملوا معهم قطعاً من الجليد لأنه لم يكن معهم من الماء شيئاً! وأصابهم العطش، فأخذوا يمضغون لحم الفقمة ويمتصون دمه! رواً لعطشهم! والحيتان الفتاكة تتقافز من حولهم وترشهم بالماء المندفع من نافوراتها! هل مر على أحد موقف أصعب من هذا؟ برد وسهد، جوع وعطش، مرض ورعب؟!!

في يوم ١٥ إبريل وصلوا جزيرة الفيل، حيث دخلوها وسط جروف صخرية شاهقة،ومن ثم أرسوا قواربهم على شاطئ صخري موحش وكان ذلك الشاطئ أول أرض تطؤها أقدامهم منذ خروجهم من جوجيا الجنوبية قبل نحو عامين.. ولم تنته المغامرة بعد، إذ أن الجزيرة موحشة لا ماء فيها ولا زاد، فما كان من شاكلتون إلا أن اختار أقوى القوارب الثلاثة التي حملتهم وأربعة من رفاقه لكي يأتوا بالنجدة من جورجيا الجنوبية والتي تقع على بعد ١٢٨٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي ولكن كان عليهم قبل الرحيل أن يقوموا ببتر خمسة أصابع لأحد رفاقهم تجمدت ساقاه من الرحلة السابقة فى الكوخ الذى أقاموه على عجل فوق الشاطئ ومن حسن حظهم أن البعثة كانت تضم طبيبين هما الدكتور "ماك إيلروي" والدكتور "ماكلين" وإن كان يعوزها أبسط أدوات الجراحة والتطبيب.

غادر شاكلتون ورفاقه الخمسة جزيرة الفيل يوم ٢٤ إبريل في واحدة من أغرب الرحلات البحرية في التاريخ! قارب نجاة صغير عليه أن يقطع ١٢٨٠ كيلو متر في أخطر بحار العالم وأكثر عنفاً! وهل يستطيع قارب طوله أقل قليلاً من سبعة أمتار وعرضه أقل من مترين أن يكابد الأنواء وكتل الجليد أياماً وليال؟!.

كتب شاكلتون يصف رحلته تلك بقوله: "إنها قصة كفاح بالغ القسوة في مياه المحيط الجنوبي المتلاطمة الأمواج وشتاء المنطقة الذي ظهر على حقيقته كسمعته السيئة التي اشتهر بها!". رغم ما مر بهم من صنوف الضنك والعذاب، والرعب، إلا أنهم وصلوا أخيراً جورجيا الجنوبية بعد أن امتلأ قاربهم بالمياه رغم محاولاتهم المستميتة لنزفها.

وصلوا جورجيا يوم ٨ مايو، إلا أنهم دخلوها فجر اليوم التالي. حيث ألقوا بأجسادهم المنهكة في أحد الكهوف القريبة من الشاطئ وناموا بملابسهم المبتلة نوماً عميقاً حرموا منه شهوراً عدة!، ثم عندما استيقظوا أشعلوا ناراً يتدفئون بها ويجففون ملابسهم...

أخذ شاكلتون اثنين من رفاقه، وترك الباقي حيث هم في خليج الملك هاكون الذي وصلوه وقد اتخذوا من قاربهم مأوى مؤقتاً بعد أن قلبوه عند مدخل الكهف ولقد أوصى شاكلتون النجار الاسكتلندي هاري نيش بعد أن وكلَّه على أمر زملائه في وصية مكتوبة قائلاً "عليكم أن تبقوا هنا حتى تصلكم النجدة، واستعينوا بعجول البحر على جوعكم وما تستطيعون صيده من أسماك وطيور، وسوف أترك لكم بندقية و ٥٠ طلقة وأنواع عدة من المؤن وهي كفيلة بأن تجعلكم على قيد الحياة مدة غير محدودة إذا لم يقدر لي العودة مرة أخرى وإن كنت أرجو أن أصلكم بها في بضعة أيام. ولكن إذا لم أصل عليكم الإبحار باتجاه الساحل الشرقي بعد أن ينقضي الشتاء.. أما أنا ورفيقيَّ فسوف نتجه نحو الشرق المغناطيسي إلى مرفأ هوسفيك"

كانت وجهة شاكلتون ورفيقيه ، محطة سترومنس لصيد الحيتان في مرفأ هو سفيك في جزيرة جورجيا الجنوبية، حيث انطلقوا عند الساعة الواحدة صباحاً على ضوء القمر وعبروا خلال رحلتهم الخطرة أنهاراً جليدية وسلسلة مرتفعات بلغ ارتفاعها حوالي ١٣٧٢ متراً، وعندما أصابهم الإنهاك غطوا في نوم عميق إلا أن شاكلتون أفاق فجأة عند الخامسة صباحا على صوت تكسر الجليد وانهياره ولولا سرعتهم في مغادرة المكان لدفنهم عند الخامسة صباحا على صوت تكسر الجليد وانهياره ولولا سرعتهم في مغادرة المكان لدفنهم في جوفه.

بعد يومين من مغادرة خليج هاكون، سمعوا أصوات صفارات محطة سترومنس لصيد الحيتان، تدعوا العمال لبدء العمل وشاهد الرجال بعد ذلك مرفأ هوسفيك وانطلقوا صوب المحطة.. وعندما شاهدهم عمالها أصابهم الذعر لأول وهلة من منظر أولئك الرجال الثلاثة المرعب البائس، وعلى الرغم من وجود المحطة في تلك الجزيرة إلا أنه لم يجرؤ أحد على التوغل داخل الجزيرة صيفا فكيف شتاء وذلك لخطورة أرضها. ولولا خبرة وجرأة وحنكة شاكلتون لما اجتازها سالماً. إلا أن العمال ما لبثوا أن أقبلوا على الرجال الثلاثة بعدما تبيّنوا بينهم السير آرنست شاكلتون والذي أصاب شهرة مدوية في تلك الأيام ببطولاته الخارقة في إرتياد المحيط الجنوبي وقارة أنتاركتيكا.

هرعت على الفور سفينة صيد الحيتان (لصيدا) وإنقاذ التعساء من رفاق شاكلتون على الجانب الغربي من الجزيرة، أما من بقي من أعضاء البعثة في جزيرة الفيل، فقد تم تنظيم وإيفاد خمس بعثات متعاقبة لانقاذهم في ظروف قاسية لم يشهدوا لها مثيلاً، حتى أنقذتهم السفينة يلكو بعد أن قضوا في الجزيرة قرابة الخمسة أشهر!!

رغم أن شـاكلتون ورفاقه لم يحققوا الهدف أو مجموعة الأهداف التي خططوا لها من بعثة العذاب تلك، إلا أنهم وجدوا بعد عودتهم إلى بلادهم كل تكريم وتوقير وأطلق على بعثتهم اسم بعثة البطال ويحسب لشاكلتون أنه استطاع العودة سالماً بجميع رجال بعثته رغم الظروف المأساوية التي مرت بهم.

شاكلتون والنهاية في قاع الأرض

كانت بعثة شاكلتون منذ البداية تتكون من سفينتين.. السفينة أنديورانس التي كان هو عليها والتي غرقت فيما بعد وعاني طاقمها ما عانوه من بؤس وشقاء وتقطعت بهم السبل، حتى وصلتهم النجدة من محطة صيد الحيتان في جزيرة جورجيا الجنوبية والتي لجأ إليها شاكلتون..

أما السفينة الثانية فكانت "أرورا" بقيادة موسن، والتي اتجهت إلى مضيق ماك موردو وعند الحافة الخارجية لطنف رس الجليدي الملاصقة لأرض فيكتوريا وكانت مهمة البعثة الثانية هي إقامة مستودعات على طول الطريق الذي سوف يسلكه فريق البعثة الأولى بقيادة شاكلتون، والذي لم يتحقق قط نتيجة لما أصاب البعثة.

وصلت السفينة أرورا إلى رأس إيفانز، حيث تم إنزال عشرة رجال على الشاطئ للبدء في إقامة المستودعات، وأرسوا سفينتهم بالقرب منهم حيث أنزلوا منها ما تيسر من مؤن وعتاد.. إلا أن الجليد أطبق على السفينة من كل جانب، فتركها رجالها وأقاموا في الكوخ الذي شيدوه على الشاطئ وحل عليهم فصل الشتاء وداهمتهم عاصفة شديدة في ٧ مايو، وعندما هدأت وطأتها، تفقدوا سفينتهم فلم يجدوها!! ذلك أن العاصفة أخذت السفينة وقيدها الجليدي الملتف حولها وغيبتها عن الأنظار بإتجاه المحيط ورحلت السفينة بما عليها من مؤن وعتاد وصدق الشاعر

ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار!

بقي الرجال في كوخهم حتى الربيع، وما أن تحسن الجو قليلاً حتى خرج أربعة منهم لإقامة المستودعات وتزويدها بالمؤن لفريق عبور القارة التي سوف يقطعها من بحر ويدل

حتى بحر رِوس كما كان مخططاً وبعد هذا العمل المضني، أصيب الرجال الأربعة بداء الإسقربوط وهم في طريق عودتهم إلى قاعدتهم وتوفى أحدهم وهو القس سبنسر سميث فحمله زملاؤه على زحافة سحبوها معهم في طريق عودتهم لمدة أربعين يوماً!، وعندما حاول الثلاثة الباقون عبور المضيق إلى قاعدتهم في رأس إيفانز هبت عليهم عاصفة شديدة شقت الجليد من تحت أرجلهم وأطاحت باثنين منهم في البحر حيث لقيا مصرعهما على الفور ولو كان يعلم هؤلاء القوم ما أصاب رفاقهم على الجانب الآخر من القارة، شاكلتون وصحبه، لما لبثوا في العذاب الأليم، ذلك لان كل محاولاتهم اليائسة تلك بهدف تأمين الطعام والعتاد لفرقة اجتياز القارة بقيادة شاكلتون، ولم يصل إلى علمهم ما أصاب شاكلتون ورفاقه من مصاعب وكوارث لأن الاتصالات اللاسلكية لم تكن متوفرة في ذلك الوقت على ما هي عليه الآن.

لم يخبرنا شاعرنا العربي عن أم عمرو، بعد ذلك، هل عادت وعاد حمارها أم غابت وإلى الأبد وغاب الحمار؟! ولكن السفينة أرورا التي (أغواها) الجليد وهربت معه إلى المحيط، قد ألقى القبض عليها بعد أن هجرها الجليد وذاب، وبعد أن قضت تسعة أشهر كاملة تتسكع في مياه المحيط (على حلّ حبالها)، واقتيدت إلى نيوزيلندا، للكشف عليها تمهيدا لإصلاحها وتقويمها. ولحق بها شاكلتون للإشراف على إصلاحها بعد ذلك، ثم عادت إلى مضيق مالك موردو في ١٠ يناير سنة ١٩١٧م ولم يجد طاقمها فريق إقامة المستودعات بدا من قضاء فصل الشتاء في مكانهم.

وقبل أن تغادر السفينة أرورا بطاقمها عائدة إلى أرض الوطن مرة أخرى، أقام من بقي على قيد الحياة من الفريق شاهداً من صليب ذكرى رفاقهم الثلاثة الذين فقدوا حياتهم هناك، وكتبوا رسالة ضمنوها قصيدة للشاعر "بروننغ" يحض فيها على التضحية

والفداء تركوها في وعاء أسفل الصليب. ولقد التقطت الرسالة بعثة أمريكية وصلت إلى ذاك المكان بعدهم بثلاثين عاماً.

شاكلتون الذي رأي الموت بعينيه عشرات المرات، لم يكتف من الغنيمة بالإياب كما يقول امرؤ القيس:

وقـــد طوفـــت بالأفـــاق حتـى رضـيت مـن الغنيمـة بالإيـاب

كما أنه لم يكتف بالتكريم الذي لقيه في بلده، ولا بالتكريم والخلود الذي حصل عليه جراء إطلاق اسمه على مواضع عدة من القارة، ولكنه عاد بعد ذلك إلى أنتاركتيكا في رحلته الرابعة والأخيرة سنة ١٩٢١م. لدراسة أرض أندربي، إلا أنه أصيب بوهن وهبوط في القلب وتوفى ودفن في جورجيا الجنوبية مُنهياً بذلك حياة قصيرة ولكنها حافلة بجلائل الأعمال إذ أنه توفى سنة ١٩٢٢م عن ٤٨ عاماً.